مساجـــلة الرمال

للآنسة النابغة « مى »

[أنواج عديدة من الرمل تتساءل شيئاً فشيئاً ، فوجاً بعد فوج ، وتتحدث فى أواخر الليل]

— الظلام يولّى هارباً ، وعمود الفجر يكاد ينشقّ . عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتوناً يُصلينا نار السعير .

— سيان لدينا الليل والنهار . كل يوم ننتظر من الظلام عذوبةً تحت أنوار الكواكب الواهية . ولكن حرارة الشمس تظلُّ مستودعة فى كياننا فنلبث فى اتقادٍ واضطرام يوماً بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة

— إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكوّن منها الصحراء المحترقة . يتهموننا بأن لمسنا يشوى اليد والقدم شيًّا ، ولكن ألسنا نعانى فى كياننا المقدورَ علينا من عذاب السعير ؟ وددتُ لو أنّ لى دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم !

— طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب ، فنفق الحيوان على صدرنا ، ومات الانسان بين يدينا ، ووجد كل منهما عندنا ملجأً طبيعيًّا يتلقاها ويضمهما اليه . ونحن الجاثمات الظامئات المتعبات على الدوام ، ليس لنا من يرثى لحالنا ويسعفنا . نحن التائقات الى التفلت من حالتنا الراهنة ، ليس لنا أن نمضى فى علوٍّ ما وننهبط فى مستقرٍّ غير هذا . واتعبى من هذا الوجود القاحل فى ديمومة السكوت والجمود !

— أو لا تتحركين وتنتقلين عند ما تطؤك سنابك الخيل وأخفاف البعير أقدام الانسان ، لدن مرور هاتيك القوافل التى ما فتئت تطوينا منذ أن كان الدهرُ وليداً ؟

— ليست هذه هى الحركة التى ننشد . إن شوقاً عميقاً فينا يتلهّف على حركة من نوع آخر

— كم من حركةٍ مفاجئة خبرتُ عند ما عصفت بى السموم فى النهار أو الحَرور فى الليل ! زعازع وأنواء انتزعتنى فى عنفٍ من مقرّى إلى مقرٍّ آخر ، فما كنتُ منتقلةً إلاَّ من الرمضاء إلى الرمضاء ، حيث السعيرُ دائمٌ والأوارُ مقيم !

— وأنا تلقفتنى العواصف غير مرة . فحطت بى يوماً عند ساحل البحر فامتزجتُ بالماء ورسبتُ فى القعر . وأغفلنى هناك زمناً الدهرُ الوسنان . ثم قذفت بى الأمواج على الشاطئ ، فتناولتنى الزوبعة الهوجاء ، وردّتنى إلى مستقرى فى هذه البطحاء !

— وأنا كم حدت بى الريح إلى حيث الينابيع تتفجّر والمياه تجرى ! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة ، وقد نوّرت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض ، وتشابكت الرياحين بمثيلاتها من شذىّ النباتات فعبق الهواء بأريج العطور !..

— لا تذكرنَ الماء والعطر والظلال لرمالٍ شقية قضى عليها بالمحل والاضطرام والصدى ، لا ترهقن فينا أشواقاً تأبى التحقيق !

— أتوق إلى الذوبان فى سائلٍ ما ، ولو كان ذياك السائل القانى الذى رأينا أحياناً على جسد الانسان والحيوان ! ولكننا غير قابلات للجرح الذى يغسل خجلنا بنجيع الدماء ، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان . قضى علينا بأن نكون دواماً فى حكم الموتى ، وقد حُرمنا نِعَماً يجنيها غيرنا فى جنةِ الأرض .

— أنكون فى حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذّب ؟ ألا ليت كلّ قافلة عابرةٍ تسير بى إلى حيث ينيخ الركبُ ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار ويأكلون ، وينهلون الماء ويرتوون ! وا حنينى إلى هناء المضارب ! وا حنينى إلى كيانٍ قابل للرىّ والارتواء !

— لو كان لى أن أرجو الوصول يوماً إلى تلك الحالة الراغدة لأعانتنى الرجاء على الاحتمال ، وكان لى منه العزاء والسلوى ! ولكننا فى هذه البطاح الصمّاء البكاء ، إنما وُجدنا لنقطع كلّ صلةٍ بين الحياة والحياة !

— ويك ! ماذا تقولين ، نحن قافلات جائعات ظامئات مشتاقات ، ولكننا وُجِدنا لنكون صلةً بين الحياة ولباب الحياة !

— أو لا ترين الفجر يتلألأ فى الأفق سنياً ؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولى ، كأنه سحيق من الذهب والبلور . هذا يوم عيد

— لولا هذا اليوم وما ميّزهُ بين الأيام ، ما كانت تلك القوافل العديدة ، قوافل الحجاج التى تراها منذ قرون وقرون ذاهبةً آئبةً

— لقد شهدتُ القوافل ذاهبةً آئبةً منذ أن خرجتُ على الضحراء رملاً ، وتعرَّفتُ قوافل العرب الرحَّل وقوافل الغزاة والمحاربين والشعراء والعاشقين . وكم من حداء سمعتُ !

— تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرناً ، وتبدَّل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الضحراء جحفل النصر العظيم . فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام ، تقبلُ علينا فى عجاجة وردية من قصىّ الابعاد حيث يخيَّل أن الآفاق تتحرَّك ، وتغادرنا فى عجاجةٍ وردية لتتوارى وراء الآفاق التى تحنو على وديعتها الفريدة الغالية

— أعرف تلك الوديعة ، فقد ساقتنى إليها الريح مرةً ! هناك مثوى ذاك الذى عرف كيف يلقى فى أرواح الشعوب روحاً حيَّةً خالدة

— فتى الصحراء ! فتى الصحراء الذى اصطفاه ربُّهُ ليحمل الكتاب . فهجر دياره ، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين !

— الفاتح الذى لا يشبهه فاتح ! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى ، بل غزا القلوب بسرِّه ، وفتح النفوس بسحره ، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة . وها الناس على توالى القرون ، وقد هاموا بجاذبيته النورانيَّة ، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التى تجمَّع عندها معنى الديار والأوطان ، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الايمان !

— سيد الغزاة والفاتحين ! إنه فتانا ، فتى الرمضاء وفتى الرمال ! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب !

— فتى الصحراء العجيب ، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نعمة الضياء ! إن ذكراه لمعتزجة بذكرانا !

— نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا فى أجلنا المديد الأليم ! نحن الجامدات ، كنا مبعث الحركة والحياة ! نحن القافلات ، كنا ومازلنا سبيل الهجرة الخصيبة

أشرقت الشمس — شمس اليوم الأول من العام الهجرىّ . من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقةً فى نور النهار الجديد . وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلها جوقة واحدة تنشد :

« نحن الرمال القافلة ،
« لا خصب يوازى خصبنا !
« نحن الرمال الجامدة
« هل من حياةٍ كحياتنا ؟ »

« مىّ »

أُمْنِيَّة

للدكتور محمد عوض محمد

ألا من لنفسى والأماني عزيزةٌ ... بأرضٍ خلَت من كل ظالمٍ ولئيم
وصومعةٍ شيدت على رأس ربوةٍ ... مهبّ رياحٍ : رُعْنٍ ونسيم
تُطِلُّ على بحر يعبّ عُبابه ... كصدرٍ لأسرار الزمان كتوم
ومن خلفها يُنبوع ماء مسلسلٍ ... كدُرٍّ على نحر الصخور نظيم
أُطالع منها الكونَ سِفراً تزاحمت ... به الآىُ قد خطَّته كفُّ حكيم
وأقرأ منها الغيب سراً محجَّباً ... بقلبٍ بصير بالخفىّ عليم
وإن زارنى فيها الرَّدَى مُتخشِّعاً ... فأهلاً به من زائرٍ ومقيم

محمد عوض